متقلب لا أمان له، بل ويتهم «القدر» بأنه ظالم(*)[١٧]. وحتى تلك الأمثال الشعبية التي تستخدم لتعزية النفس، او لتعزية الآخرين عندما يقع مكروه، هي في التحليل النهائي تبرئة للانسان من مسؤولية ما وقع من شر وتحميلها للقدر، فالإنسان يبذل الجهد الصحيح، ولكن القدر يصر على نتائج سيئة معاكسة لهذا الجهد الانساني. ان هذا الميل، لدى الفلاح، لتبرئة الانسان وتجريم القدر قد يبدو مستغرباً من «فلاح مؤمن»، ولكن الأمر يبدو واضحاً إذا ما وضعنا في الاعتبار ان «القدر»، تاريخياً، كان يعني مشيئة آلهة الارستوقراطية الحاكمة التي كانت مصدر المظالم والشرور التي عاناها الفلاح**.

كما سيتضح، في فصول قادمة من هذا البحث، ان هناك صلة وثيقة بين الموقف الديني للإنسان المصري والمصالح الاجتماعية ــ الاقتصادية لهذا الانسان. ولذلك، نرى من الضروري ان نبدأ بالقاء ضوء على العوامل المشكلة لهذا الموقف.

من الممكن، بشكل عام، قبول التفسير الذي تقدمه الماركسية لظهور الدين في العصور القديمة؛ فالانسان، في تلك العصور، كما يقول التفسير الماركسي، كان ضعيفاً امام الطبيعة، ولذلك كان مضطراً ان يتوجه الى قوى ما فوق الطبيعة يستثيرها ويسترضيها لكي تؤثر في الطبيعة لصالحه[١٨]. ولكننا نرى ان هناك خصوصية يجب ان توضع في الاعتبار فيما يتعلق بالانسان المصري القديم والكيفية التي صاغ بها دينه. من المؤكد ان الانسان المصري الأول، مثله مثل غيره من البشر في اماكن اخرى من العالم، كان يرى في الكون من حوله اشياء غامضة يشعر ازاءها بالرهبة والحيرة. فالسماء المكشوفة امامه بنجومها وكواكبها كانت، ولا بد، موضوعاً دائماً لتأملاته. والشمس التي تلازمه طوال اليوم، وبخاصة قدرتها على انضاج محاصيله، ليس من شك في انها جعلته ينظر اليها نظرة امتنان وتقديس ثم ما لبثت هذه النظرة ان تطورت إلى التأليه.

إلا ان بيئة الانسان المصري لم تكن فيها تلك العناصر التي تهدده او تهدد محاصيله. فليست هناك عواصف او اعاصير، وليست هناك غابات او جبال مليئة بالأسرار، وهو لا يعتمد في زراعته على مطر تأتي به قدرات غيبية، وإنما على النيل. وعلاقة السببية الواضحة القائمة بين مياه النيل والأرض وعمل الفلاح والتي كان نتاجها محصوله، اكسبت الفلاح، منذ البداية، نظرة مادية لقضايا المعيشة وللحياة. لذلك، لم يكن الفلاح المصري القديم بحاجة ماسة الى «قوى فوق طبيعية» يطلب تدخلها لحمايته من خطر محيط به، او لتوفير اسباب محصول جيد. وحتى الفيضان كان الفلاح يعرف انه يمكنه السيطرة عليه، والحد من اثاره السلبية، بعمله المادي وليس بالدعاء لقوى فوق طبيعية.

---

* ومن الأمثال الشائعة التي اوردها كمال المنوفي: «خلق ناس وتحفهم، وكب ناس وحدفهم»، و«ادي الحلق للي بلا ودان» وهو ما يعني «اعطى الحظ لمن هو غير مؤهل له»، و«الدهر ميال»، و«الدنيا يوم معاك ويوم عليك».

** من الأمثال الشائعة في هذا الاتجاه: «العبد في التفكير والرب في التدبير» و«اللي من نصيبك لازم يصيبك» و«الحذر لا يمنع القدر».